

إِنَّ المعالي مُذْ نشأَنَ سحائب
أَخْضَلَتْ من ماء الحياة مرادها
[99] وَجَرى بِذاك العَذْب، في شَجَرَاتِها
فوضعت ذِرَّتَها وَقَتَ زَمَانِها
والمأثرات إذا اعتبرنَ فإنما
سَلَسَلْتُم راحَ المكارمِ لِلوَرى
مرحتَ جِياذُك ليس يثنيها السرى
وشرتَ سيوفُك بالعلی اغمادها
تسقي العُدَّةَ سِماها فكَأَنَّها
بأكف طائفة تَرى يومَ الوغا
هَجَرَتْ لأطرافِ الرِّماحِ سِهامُها
تختارُ من يَضرُ السُّيوفِ فليَها
وتظلُّ إن سفع الحديد وجوهها
وإذا دَعاهُم صارخُ لكريهة
متهلِّلينَ كأَن في قَسَماتِهِم ...
أنتَ الذي إن حلَّ رُبُك طارقُ
وتخاضعتَ ذُلًّا إلیك رقابُها
وإذا امتطى ظَهَرَ الحصانِ رأيتَه
وإذا امتريتَ نواله أَلْفيتَه
يا روضةً لِلأَمِلينَ وجنة
إِنَّ الأَعادي لا تزال كَعَهديها
[100] قد غَضَّتْ أنهارها وتحرَّفتْ
كَلِفَتْ بها أَعداؤها حَتَّى لَقَدْ
ما ضَرُّنا إن غَلَقُوا ما حَوَّلَها
وأنا الزَّعيمُ إذا أشرتَ بلحظةٍ

تسقي ثَرَاكَ غَدوُها وَرَوَّاحَها
فَعَدَتْ تُبَوِّئُ في ذِراكِ مَراحِها
فَنَتَّ عَلَيْكَ غُصُونُها أَمَدَها
فَتَكسَبَتْ بِكَ بَشَرها وَسَماحَها
طَبَعَتْ جُسوماً كَتَمَ أرواحُها
فَسَقِيْتُموه نَميرَها وَقَراحَها
وَلأَمَرُ غَيِّبَ ما تطيل مَراحَها
يَوْمَ الوغا فاستجزَلَتْ أرباحُها
أَيَّدُ تُصَفِّقُ لِلندامى رَاحَها
بفنائها أن تستحذَ فلاحُها
وَنَفَتْ لِأَشفارِ الطُّيِّ أَرماحُها
وَتَذُمُّ من سُمِّ الرِّماحِ صِحاخُها
صِغَتْ بِتأَمُّورِ القُلوبِ صِفاخُها
طَارُوا لَها يَضرُ الوجوه صِباخُها
سُرُجاً تَبينَ تحتها ؟ أَشباحُها
أَلَفَتْ لَكَ الكُومَ العِناقِ رِماحُها
تُزجِي إلیك هِجانَها وَلِقاحُها
بَدَرَ الكَتائبِ لَيْثُها جَحَاجِها
سَمَحَ الخلائقَ جَزَلُها وَضاحُها
تَدْعُو بِحي على الندى مَنّاخُها
تورى بِشَلَبِ مَغارِها وكَفاحُها
أَشجارُها وتَكفَّاتُ أَقداحُها
أَخَذُوا عَلَيها نَجَدَها وَبِطاحُها
إِنْ كانَ سَيِّفُكَ بَعْدَها مَفتاحُها
أَنْ تُشَرِّدَ عِداها وَطَمّاحُها

فَعَلَى سِیوفِكَ أَنْ تُبیدَ كِما تَها
أَشكو إِلَیكَ مِنَ اللَّیالی إِنَّها
كَم رُمْتُ أَنْ أَلقاکُم وَتَصُدُّني
وَتَضيقُ نَفْسي ثُمَّ أَجْري ذِكرُكم
إِنْ كانَ دَهرِي يَتَنَغي إفسادَها
فَلَقَتْ رِكابِي مِنَ مُعاوَدَةِ السُّرى
وَصَلَتْ إلی مَلِكِ الهُدَى فاعادَها
وَاليَکَها قَدْ بَيَّنْتَ عَن طاعَةِ
وَشَدَتْ بِذِكرُكم الجَميلِ فَعَطَلَتْ

وَعَلَى جُيوشِكَ أَنْ تَروِّحَ سَاحَها
قَدْ أَبْرَحْتَ بِظِلّامَتِي أَبراحَها
نُوبَ تَنيخٍ بِسَاحَتِي أَتراحَها
فَتَظَلَّ تَسْتَدْني إلی نِجاحَها
بِجَميلِ رَأْيِكَ قَدْ أَسَوْتُ جِراحَها
وَحَمَدَنَ رَأْيِي حِينَ كُنْتُ صَباخَها
مِمّا شَكَنَ مِنَ السُّرى وَأَراحَها
قَصَرَتْ عَلَیْکُم مُحَضَّها وَضَراحَها
زَهَرُ الحِداثِ وَرَدَها وَصَباخَها

وفد مع الشعراء أبو عمر بن حربون⁽¹⁾ فقال مهنتاً على هذه البيعة
السعيدة ومادحاً وذكر الوقعة التي كانت على ابن همشك وابن مردنیش بجبل
السبكة بغرناطة في عام سبعة وخمسين قبل البيعة : (الطويل)

[101] لَكُمْ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تُهْدِي المَحامِدُ
فإن لَكُمْ حَقًّا عَلَي كُلِّ مُسْلِمٍ
إِلَيْكُمْ سَرَى مِنْ شِلَبِ رَكْبٍ كَأَنَّهُمْ
سَرَوْا فَوْقَ أَعناقِ الشَّدائِدِ نَحْوَكُم
لَعَمْرُ عَلاکُم إِنَّها لَمَليئَةٌ
أَتَتْ بِما أَبَقَتْهُ مِنْها ، وَمِنْهُمْ
تَجُوبُ بِهِمْ جَلابَ كُلِّ دُجْنَةٍ

وَفِي وَصَفِ عَلَياكُم تُصاغُ القلائِدُ
رَبَّتْما تَقْضي الحَقوقَ القِصائِدُ !
مَطاردُ أَوْ هُمْ لِلخُطوبِ طَرائِدُ
وَفِي طَلَبِ العَلِيا تَهونُ الشَّدائِدُ
بِمَا ضَمِنَتْ عَناها العِناقُ الجَلادُ
صَروُفُ اللَّيالي وَالسُّرى وَالْفَدائِدُ
تَكادُ تَضِلُّ القِصَدَ فِيها الفَرائِدُ

(1) هو أبو عمر بن عبد الله بن حربون كان أولاً في جملة كتاب ابن قسي زعيم المريدین ثم في جملة كتاب السيد أبي حفص وطلبة الحضرة إلى أن مني بالحرمان، أورده ابن صاحب الصلاة عدة قصائد في مناسبات مختلفة وعن روى عنه أدبه وأشعاره عبد الله القيسي وابن حربون هذا غير الشاعر ابن حزمون (بالزاي) الرسي. ابن الأبار، التكملة، عدد 1427، الحلة السيرة نشر دوزي ص 200، 201. صفوان بن ادريس، زاد المسافر ص 189 المراكشي، المعجب ص 293 - 294 - 295. المنن بالامامة 111 - 213 ابن عذارى، البيان المغرب ص 46.

وَلَوْلَا خُطُوبُ أَخْرَجْتَنِي لَمْ يَفِدْ
فَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْ شَاهِدِي بَيْعَةِ الرِّضَا
فَحَسْبُ اللَّيَالِي أَوْ فَحَسْبِي أَنَّنِي
رَأَيْتُ الْعِدَى قَدْ أَخْلَفْتُهُمْ ظَنُونَهُمْ
فَمَا زِلْتُمْ تَرْقُونَ حَتَّى أَنْتَهَيْتُمْ
فَجَاءَكَ بُرْهَانُ مِنَ اللَّهِ صَادِقٌ
هِيَ الْبَيْعَةُ الْغَرَاءُ جَاءَتْ يَقُودُهَا
تَسْرُبُهَا مِنْ سِرِّ قَيْسٍ (1) مُحِبُّ
وَأَبْيَضُ فَيَاضُ الْيَدَيْنِ مُبَارَكٌ
فَإِنْ قَلَدَ الْأَمْرَ الْعَلِيَّ فَإِنَّهُ
مِلْيَكُ إِذَا لَاحَ النَّهَارُ مَعْظَمُ
يَدَيْنَ لَهُ مَنْ لَمْ يَدِنْ لَخْلِيفَةٍ

[102] وَيَكْتَسِبُ الرَّعِيدُ مِنْهُ بَسَالَةً

وَتَعْرِفُ مِنْ جَدْوَى يَدَيْهِ الرُّوَاعِدُ
فَمَا يَذْفَعُ الْمَوْهُوبُ إِلَّا بَيْعِيهِ
فَيَرْجِعُ عَنْهُ جَاهِلٌ وَهُوَ عَالِمٌ
لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ لِلْمُزْنَ جَوْدَهَا
وَطَبَعَ تَمَنَّى الرَّافِإْدَانَ (2) لَوْ أَنَّهُ
إِلَيْهِ أَنْتَهَى النُّورُ الْمُبِينُ الَّذِي بِهِ
هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ صَفْوَةٍ بَعْدَ صَفْوَةٍ
سَلِيلُ الْإِمَامِ الْمُجْتَبَى وَشَبِيهُهُ

(1) يعني قيس، وقد علمت أن بعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن - وهو من كومية - إلى قيس عيلان بن مضر وإن المحققين على أنهم ينتهون إلى ضري بن زحيك. أنظر التعليق رقم 6 ص 73. الاستقصا ص 89.
(2) الرافدان: دجلة والفرات، وعن هذين النهرين أنظر: جغرافية العراق للدكتور جاسم محمد الخلف طبعة معهد الدراسات العربية 1961 ص 26 - 28 - 29.

مَجَالِسُهُمْ رَوْضَاتُ نَجْدٍ (1) يَزِينُهَا
مَجَالِسُ لَوْ تَرْقَى الْكَوَاكِبُ نَحْوَهَا
لَقَدْ عَمَرَتْ بِالْعِلْمِ حَتَّى كَانَهَا
إِذَا نَضَّدَ الدِّيَاجُ مَالٌ بِمَعْشَرٍ
وَإِنْ مَرِهَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ فَعِنْدَهُمْ
بَعْدُ أَيْ يَقُوبُ يَأْمَنُ خَائِفٌ
فَتَى تَنْجَلِي الظُّلُمَاءُ عَنْ نُورِ وَجْهِهِ
وَسَائِلُ بِهِ تُخِيرُكَ عَنْ عَزَمَاتِهِ
عَلَيْهَا لِرُقْرَاقِ السَّرَابِ غَلَايِلُ
تَجْمَعْنَ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ تَأَلَّقَا
وَطَنَتْ مَجَاجِ النَّحْلِ مِنْهَا بِمَالِهَا
[103] وَسُمِرَ طَوَالُ مِنْ رِمَاحٍ رُدَيْنَةٍ
أَبَتْ أَنْ تَرَى إِلَّا وَرِيَانٌ صَادِرٌ
تَمِيسُ كَمَا مَاسَتْ قُدُودُ نَوَاعِمُ
تَزَيَّتْ بِزَيِّ الْحَبِّ فَهِيَ سَوَاهِمُ
وَعُوجٌ كَأَمْثَالِ السَّرَاحِينِ شَرْبُ
حِسَانٍ لَوْ أَنَّ الْحُسْنَ نِيلٌ بِمَطْلَبٍ
إِذَا أَلْجَمْتَ لَمْ يَعْصِمِ الْعَصَمُ مَعْقِلُ
فَمَا سَوَمَتْ مِنْ قَبْلِهِنَّ بَوَارِقُ
إِذَا شَطَبَتْ مِنْهَا بَدَتْ تَحْتَ فَارِسٍ
تَرَاهَا كَمَا وَلَّى مِنَ الدَّعْرِ خَاضِبُ

(1) نجد: البلاد التي فوق العالية من جزيرة العرب بالنسبة لنهامة. ياقوت: معجم البلدان. تاريخ نجد (للشيخ ابن غنام) نشر الدكتور ناصر الدين الأسد 1961.
(2) العين المره: غير المكحولة، وشبا كل شيء: حد طرفه.
(3) جمع أسود: العظيم من الحيات وفيه سواد.

رجع الخبر

ذكر حركة السيد الأعلى أبي حفص إلى أخيه السيد أبي سعيد
على معنى التحامل والتعاون ، والتواصل والتعاون ،
واجتماعهما بجبل الفتح جبل طارق

تحرك السيد الأعلى من حضرة مراكش في أول شهر ربيع الأول الموافق
لبقية أيام⁽¹⁾ من شهر ينير العجمي من عام ستين وخمس مائة في جملة من
أعيان رجال الموحدين - أعانهم الله - وأبناء الجماعة كأبي يحيى بن الشيخ
المرحوم أبي حفص⁽²⁾ ، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت⁽³⁾ ،
واسحاق بن أبي إسحاق بن جامع⁽⁴⁾ . ومن أشياخ ثوار الأندلس المختصين به
كأبي محمد سيد رأي [105] ابن وزير⁽⁵⁾ ، وأخيه أبي الحسن⁽⁶⁾ علي ،
وصاحب لبلة⁽⁷⁾ علي الفخار ، وزيد بن محبوب ، ومحمد بن أبي مروان بن
سعيد الغرناطي⁽⁸⁾ ، ومن أشياخ مسوفة ولمتونة رجال اجتمع فيهم نخبة من
الناس كبيرة القدر ، متوسطة العدد والذكر ، عددهم نحو الأربع مائة فارس ،

(1) الموافق 16 يناير 1165 .

(2) راجع تعليق رقم 6 صفحة 93 .

(3) من أبناء الجماعة ، وقد صاحب السيد أبا حفص ابن الخليفة عبد المؤمن إلى غزو ابن مردنيش سنة خمس وستين
 وخمسمائة ، وكذلك صاحب الخليفة أبا يعقوب يوسف في موقعة ويذة ، وذهب في مهمة إلى بطليوس . . . أنظر
 ص 279 من ابن صاحب الصلاة .

(4) من أعيان رجال الموحدين ، وأغلب الظن أنه أخ للوزير أبي العلاء ادريس بن أبي إسحاق ابن جامع راجع
 التعليق رقم 2 صفحة 169 .

(5) هو صاحب يابرة . أنظر التعليق رقم 3 صفحة 67 . الاستقصا . الجزء 2 . ص 107 .

(6) أنظر التعليق رقم 4 ص 167 .

(7) لبلة (NIBLA) : مدينة قديمة تقع في الجنوب الغربي للأندلس بشمال طرانة قريباً من إشبيلية . الروض
 المعطار ص 168 .

(8) من أسرة ابن سعيد المعروفة أصحاب قلعة يحصب (Alcalà la Real) ويظهر أنه أخ لعبد الرحمن وزير المظالم
 لدى ابن مردنيش والمنضم للموحدين بعد ، وقد تولى كل منها على التوالي الاشراف على أعمال البناء الجارية
 في المسجد الجامع بإشبيلية . راجع صفحة 325 - 332 - 337 - 338 - 339 . ابن الخطيب : الاحاطة ،
 مخطوطة الاسكوريال ورقة 147 .

كما انحدرت من رأس رضى⁽²⁾ الجلامد
تساغى بها بين البيوت الولائد
كما افتضحت بعد الأماني عامد⁽³⁾
كأن ربها للعوافي⁽⁴⁾ موائد
غداة رأوا أن الشفار الموارد !
ولموا كما ولت نعام شوارد !
وهم للسيف المراهقات حصائد
وقد فاز بالنصر الجليد المجالد
وهل يدفع الجين المتاح المكائد
إذا لم تساعده على الضرب ساعد⁽⁵⁾
فسيان منهم طائع ومعائد
فمن نال حظاً منكم فهو ماجد
عليها من النظم البديع فرائد
ومن نعم المولى المعظم شاهد
عجائب يفنى الدهر وهي خوالد !
الى ابن أمير المؤمنين قواصد .

لقد وردت شبل منها⁽¹⁾ مقانِب
تجلل منها المرذنيشي خزبة
وولى بها شوهاة قد فضحتهم
قريتم سباع الأرض منها فأصبحت
لقد أيقنوا أن الحثوف مصادر
فجاءوا كما جاءت أسود بواويل
كتائب كالخامات خاموا ، فأصبحوا
نزلت عجاج الموت ثم تكشف
ولم يغن عنهم يوم ذلك كيدهم
[104] وما يصنع السيف المصمم في الوغى
إذا كان صبور الملوك بحكمكم
وما المجد إلا من هبات أكفكم
ودونكمورها من ثنائى فريدة
تلاقى عليها من لسانی شاكِر
وفي خلدي إن كان في العمر مهلة
قصائد أنى سرت يوماً فإنها

(1) أنظر التعليق رقم 5 ص 132 .

(2) رضى : اسم جبل بين المدينة والينبع : ومنه المثل العربي : «أقل من رضى وخاخ» ، شيخ تشاب وشاب
 تشاخ .

(3) كذا في الأصل ولم تتبين جيداً من معنى الشطر الثاني للبيت . . .

(4) العوافي جمع عاف : كل طالب للرزق ، وقد قرئت لدى بعض الناس «العوافي» جمع عرفاء : الضيع وذلك
 لطول عرفها وكثرة شعرها قال الشنفرى :

ولي دونكم أهلون سيد عملس وارقط زهلول وعرفاء جبال

التأني : لامية العرب طبعة الرباط ، 1953 ص 21 .

(5) على بين هذا البيت طرة باهتة لم تتبينها إلا في (أكسفورد) ، وقد كتب فيها باللفظ : «هذا ينظر إلى قول المتنبي :
 وما السيف إلا مستدار لزينة» . وقد حاولت عبثاً أن أجده ذكراً بين شعر المتنبي ، وقد أفاد الأستاذ البهانة
 السيد عبد الكريم بن الحسين في رسالة مسهبة أن قائله هو البحري وليس المتنبي من قصيدته في مدح الفتح
 ابن خاقان غير أنه عوض (مستدار) يوجد (بزغاد) والبز : السلاح وليس بعيداً تحريف بزغاد إلى مستدار .
 أنظر مجلة (الأقلام) العراقية أكتوبر سنة 1964 . ص 178 .

وصحبه بالأمر الكريم للغزو في هذه الحركة السعيدة الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين⁽¹⁾، وأبو عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن وانودين⁽²⁾ بعسكر مختار من أعيان العرب وأنجاهم كعلي بن محرز بن زياد⁽³⁾، وأخوته المبادرين للغزو بالتكاثر والازدياد، ومن قبيله وشيعه رجال فرسان أبطال زهاء أربعة آلاف فارس ليتقدما بهم بين يدي السيد الأعلى الى إشبيلية وقرطبة لحماية صيفتهما في مواسطهما وثورتهما ودفع الأعداء الروم والأشقياء المنافقين عن معمورهما، فوصل السيد المذكور وجمعه الموفور الى مدينة سلى بالجميع، وأقام فيها نحو شهر للنظر في المصالح، وتقدم الشيخ أبو سعيد وأبو عبد الله محمد بن يوسف، بالعرب الى البحر للأجزة على ما تووعد معهما عليه، وفي أثناء هذه الإقامة خاطب السيد الأعلى أخاه إلى قرطبة يعلمه بالمشي إلى لقائه، وتنسّم ريح المواصله من تلقائه، وإن يكون المجتمع بجبل الفتح جبل طارق - عمره الله - فوصل جوابه منعماً بذلك تحت وعد صادق، [106] وعهد موافق، فأعمل السيد الأعلى حركته الميمونة، ومشيته المصونة، بجملته الخاصة المذكورة المتعينة من سلى الى طنجة.

قال المؤلف عبد الملك بن صاحب الصلاة : كنت⁽⁴⁾ في جملة الواردين قاصداً التبرك بالسيد الأعلى، ولأحضر مع طلبة الحضر الوافدين، وأقصد قصد القاصدين . ولما وصل السيد الأعلى الى طنجة⁽⁵⁾ بجملته المباركة ركب منها

(1) يخلف من شيوخ الموحدين الذين اعتمدتهم البلاط الموحدية في غزواته ضد الثوار سواء في المغرب أو الأندلس، ولذلك فقد نال تنويهاً من قبل الخليفة يوسف في الرسائل الموحدية، وقد كان عين من قبل عبد المؤمن بن علي وزيراً في بجاية لولده عبد الله ثم بعث به يوسف كطليعة أولى عندما قرر الجواز إلى الأندلس سنة 566. البيهقي ص 32 - 33. الاستقصا ثان ص 110.

(2) أنظر التعليق رقم 5 ص 117.

(3) هو ابن الشاعر العربي محرز بن زياد أنظر تعليق رقم 6 ص 72.

(4) أمسى ابن صاحب الصلاة يتحدث عما رآه رؤيا عين وقد نزل بجبل طارق. راجع المقدمة.

(5) طنجة : مدينة أزيلية كانت بها آثار كبيرة للأول ويعتبرها بعض الجغرافيين آخر حدود إفريقية في المغرب، وكانت على الدوام دار مملكة الأمم الغابرة، ويذكر التاريخ أنه منها كان يتدرب صيف الإسكندر الذي بناه على بحر الزقاق إلى ساحل الأندلس. وكانت تمر القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى الأندلس، ويذكر أنه قبل =

البحر الزقاق في الغراب⁽¹⁾ طيار وعبر به إلى مدينة سبتة منفرداً مع خاصته الخاصة به وكتابه أبي الحسن عبد الملك بن عياش، وأمر بمشي الناس على خيلهم على البر إلى (قصر مصمودة)⁽²⁾ ثم إلى سبتة، فنزلوا بها، تحت أمره بخير منزل، وانسابت عليهم الأرزاق والضيافات والمواساة بكل بر مستعجل، فلما كان في اليوم الثاني من وصوله إلى سبتة، عبر غراب طيار في البحر من الجزيرة الخضراء يعلم من فيه بحلول السيد أبي سعيد مع خاصته وأشياخه بجبل الفتح جبل طارق، فعبر السيد الأعلى البحر في ذلك اليوم، ومعه جملة الناس في القاطع المعدة لعبوره في هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود، وقرع الطبول والسرور بالورود، وإيصال الشمل بذلك الوصول، وكان يوماً شهيراً كله سرور، وبرز أيضاً فيه السيد أبو سعيد في قطاعه بجبل الفتح براياته، وإنجاز عاداته، وبشعر ملاقاته، ما أبهرت [107] الحاضرين، وسر العابرين والنظرين، واجتمعا خيراً اجتماع، وارتفع الإرجاف أجمل ارتفاع، وعم الخير والخبور بجميع الجهات والأسقاع وفود أهل إشبيلية والفقهاء ابن الجد، وقاضيه أبو بكر الغافقي، وصاحب المخزن محمد بن المعلم⁽³⁾ المستتاب بإشبيلية، وأهل الغرب⁽⁴⁾، وأهل قرطبة وغرناطة والشعراء للتهاني، باتصال البشارات والأمانى، وجلس السيد الأعلى للناس

= الفتح الإسلامي بنحو مائتي سنة طغى ماء البحر المحيط إلى بحر الزقاق فضاعت القطرة الاسكندرية. الادريسي ص 168 - الاستبصار ص 138 - معجم البلدان - المقري : نفع الطيب 1949 جزء أول ص - 132 133. راجع التعليق رقم 5 ص 72 والتعليق رقم 4 ص 90.

(1) الغراب : Gurapus كلمة مرادفة لكلمة قطعة بمعنى السفينة القديمة التي تسير بالقلوع والمجاذيف، وقد ورد ذكرها هنا وكذا في البيهقي ومصادر أخرى، واستمر لفظ (الغراب) معروفاً إلى أواسط القرن الثامن عشر ولذلك فإننا نجد له ذكراً في سفارة الغزال لاسبانيا، جمعه أغربة.

ابن صاحب الصلاة ص 108 البيهقي، أخبار المهدي ص 107 النص العربي ص 176 والنص طبعة معهد مولاي الحسن، تطوان 1941 ص 11. الاستقصا 6 : 75.

Dozy Sup. aux dictionnaires Arabe. T. 2. page 204 - 205.

(2) أنظر تعليق رقم 1 صفحة 128

(3) أنظر التعليق رقم 2 صفحة 142

(4) يقصد الغرب (AL GARVE) من الأندلس.

للسلام في القصر المشيد في البنيان الرفيع الشان ، فدخل وقد بعد وفد ،
وخطبوا وأطنبوا ، وأطعموا الطعام ، وأنبلوا المنزل الرحب والأنعام ، وأنشد
الشعراء أشعارهم وقضوا فيما وفدوا به أوطارهم ، وجبا السيد الأعلى جميعهم
بالأعطيات والبركات والكسا على أتم الخيرات ، ودامت الإقامة في الجبل مدة
خمسة عشر يوماً في مسرة متصلة ، ومبرة مشتملة ، وأنشد أبو عمر بن حربون
قصيدة حسنة من أولها إلى آخرها : (بسيط)

قَدْ حَصَّصَ الْحَقُّ لَا رَيْبَ وَلَا فَنْدَ هَٰذِي الْفُتُوحَ الَّتِي كَانُوا بِهَا وَعَدُوا
خُذُوا بِحِظِّكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدَلُسَ فَلَيْسَ لِنَاوِ بَعْدَهَا رَشْدُ

وَأَسْتَمِسُّوكُوا بِعُورَى الْأَمْرِ الَّذِي بَهَرَتْ

آيَاتُهُ كُلُّ مَنْ يَغْلُو وَيَقْتَصِدُ
الْيَوْمَ صُمَّ صَدَى الْغَاوِي بِأَرْضِكُمْ
وَالْكَلْبُ يَنْبَحُ مَا لَمْ يَزَارِ الْأَسَدُ !
هَذَا الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِهِ
قَدْ أَنْجَزَ الْوَعْدَ حَقًّا وَانْتَهَى الْأَمَدُ

[108] هَذَا سَلِيلُ إِمَامِ الْحَقِّ بَيْنَكُمْ
لَا الْمَالُ مَذْخَرُ عَنْكُمْ وَلَا الْوَلَدُ
فَقَدْ ظَفِرْتُمْ بِفِيَاضِ مَوَاهِبِهِ
تُحْصَى الْحَصَى قَبْلَ أَنْ يَحْصَى لَهَا عَدَدُ
يَغْشَوْنَ مِنْهُ إِلَى أَنْوَارِ ذِي فِطْنٍ
يَكَادُ لَوْلَا نَدَى كَفِّهِ يَتَّقِدُ
لَا يَقْبُضُ الْعَدَمُ كَفًّا عَنْ أَخِي أَذْبٍ
إِلَّا إِذَا انْبَسَطَتْ بِالْعُرْفِ مِنْهُ يَدُ
لَمَّا اعْتَضَدْتُمْ بِهِ مُسْتَصْرِخِينَ سَرَى
إِلَيْكُمْ وَهُوَ بِالرَّحْمَنِ مُعْتَصِدُ
وَجَاءَ فِي سَرْعَانَ الْجَيْشِ يَقْدُمُهُ
جَبْرِيلُ وَالْمَلَأُ الْأَعْلَى لَهُ مَدَدُ
تَحْتُهُ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ طَائِفَةٌ
لَا يَنْهَدُ النَّصْرَ إِلَّا آيَةٌ نَهْدُوا
مُجَرَّبُونَ مِرَاسِ الْحَرْبِ دَائِبُهُمْ
فَكَلَّمَا صَدَرُوا عَنْ غَمْرَةٍ وَرَدُّوا
قَدِ طَالَ مَا عَجَمَتْهُمْ كُلُّ مِلْحَمَةٍ
لَهَا طَرَائِقُ فِي هَامَاتِهِمْ قِدَدُ
أَنْظَرُوا إِلَى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ⁽¹⁾ كَيْفَ خَوَى
مِنْ الْفَضَائِلِ مَا لَمْ يَخَوْهُ بَلَدُ

(1) يقصد به جبل طارق، وبه فر في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَالَ مُوسَى لِقَتْلَاهُ لَا أُبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ . (السورة رقم 18 الآية 59) فراجع ما كتبه المفسرون .

لَاقَى الْكَلِيمُ عَلَى الشَّاطِئِ بِهِ خَضِرًا⁽¹⁾
صَنَوَانٌ مَا اجْتَمَعَا فِي أَرْضِ أَنْدَلُسِ
يَا مَنْ رَأَى الْفَلَكَ فَوْقَ الْمَوْجِ طَافِيَةً⁽²⁾
يَنْسَابُ مِنْهُمْ فِي أَعْلَى غَوَارِبِهِ
كَمَا كَفَاتَ⁽³⁾ قِبَابًا وَسَطَهَا الْعَمَدُ
بَحْرٌ كَانَ أَبَا حَفْصٍ بَصْهَوْتَهُ
أَسَاوِدُ سَكَنْتُ أَجْوَانَهَا أُسْدُ
لَقِمَانُ وَالْمَرْكَبُ الْجَارِي بِهِ لُبْدُ⁽⁴⁾
تَعْجَبُوا مِنْ غُرَابٍ⁽⁵⁾ فَوْقَ غَارِبِهِ
تَهْلَانُ ذُو الْهَضْبَاتِ الشَّمُّ أَوْ أَحَدُ
بَحْرًا خِصْمًا لَهُ مِنْ فَضَّةٍ زَبَدُ
فَمَا لَكُمْ دُونَ هَذَا الْأَمْرِ مُلْتَحِدُ
وَعَايَنَ الْبَحْرُ مِنْهُ⁽⁶⁾ لَجَّتْهُ
عَلَى الْعِرَابِ وَأَنْ الْمَلْتَقَى صَدْدُ
وَبَشَّرَ الْعُجْمُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ دَلَفَتْ
فَالآنَ قُلْ لِلذَّوِي الْإِلْحَادِ شَانِكُمْ

[109] هَاتِيكَ ثَانِيَةَ الْيُرمُوكِ⁽⁷⁾ قَدْ رَجَفَتْ

مَا إِنْ لَكُمْ صَبَبٌ عَنْهَا وَلَا صَعْدُ

(1) يذكر المفسرون - كما قلنا - أن مجمع البحرين عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط وبحر
الاندلس ، وأن في هذا المكان بالذات تمّ التقاء نبي الله موسى بالخضر عليه السلام . ابن جزي -
كتاب السهل الأول جزء ثان طبعة 1355 - ص 191 - 192 . عيد الوهاب النجار : قصص
الأنبياء طبعة 1936 ص 302 .

(2) نظراً للمكانة الخاصة التي احتلها الأسطول المغربي على عهد الموحدين . والتي كانت الباعث الأول
لصلاح الدين الأيوبي على الاستنجاد بهذا الأسطول . فإن القطع الشعرية التي كانت تقدّم للخلفاء
الموحدين ، كانت تشير في الغالب إلى هذه الظاهرة الحضارية التي كان المغرب يستأثر بها .

(3) المعنى على (نصبت) مثلاً ، لكن المخطوط فيه كفات ولم أعتضم المعنى على هذا اللفظ .

(4) لعله يقصد لقمان صاحب النور وتنسب الشعراء إلى عاد (لسان العرب) . وفي حياة الحيوان
للدميري ص 301 جزء 2 في أمثال النسر : وقالوا - أقي الأبد على لبْد ، وهذا اللبد هو آخر نسر
لقمان بن عاد ، وكان قد سأل الله طول العمر فاختر النسر ، فكان يأخذ الفرخ حين خروجه من
البيضة فيربيّه فيعيش ثمانين سنة ، هكذا حتى هلك منها ستة فسمى السابع لبْد ، وذكر في لبْد
قوله : أهزم من لبْد وأنشد :

يَا بَكْرُ حِوَاءَكُمْ تَعِيشُ وَكَمْ تَسَحَبُ ذَيْلَ الْحَيَاةِ يَا لُبْدُ

(5) راجع التعليق رقم 5 ص 180 .

(6) يظهر أن لفظة (فوق) سقطت هنا .

(7) اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة ، كانت
به حرب بين المسلمين والروم أيام أبي بكر الصديق . ياقوت معجم البلدان . دكتور حسن إبراهيم
حسن : تاريخ الاسلام ، مجلد أول ص 225 .

فَالَّذِينَ جَذَلَانُ قَدْ عَزَّتْ جَوَانِبُهُ
هَآ إِنِّهَا كَالدَّبَا تَنْسَاعُ نَحْوَكُمْ
تَرَى الْكُمَاةَ الَّتِي مَا شَأْنُهَا خَوْرُ
شَيْبٍ وَمُرْدُ يُنَادِي الْبَاسُ إِنْ رَكَبُوا :
ظَنُّوا بِهَا قَدْ أَتَتْ تُزْجِي مَقَابِلَهَا
وَلِلذَّوَابِلِ فِي أَرْجَائِهَا نَعَمٌ
مِنْ كُلِّ أَزْرَقِ أَثَارِ الدَّمَاءِ بِهِ
أَطْلَعْتُمُوهَا بِأَفَاقِ الْوَعَى شُهْبًا
فَلَيْسَ يَضَعِدُ شَيْطَانُ التَّفَاقِ بِهَا
مَنْ ذَا الَّذِي يَتَعَاطَى وَصَفَ حَالَكُمْ
فَسَوْغُوا عَبْدَكُمْ عِذْرًا ، فَمَجِدْكُمْ
وَدُونَكُمْ مِنْ قَوَافِي مَدْحِكُمْ حَبْرًا
صَدْرَنْ مَنِّي بِحُكْمِ الْوَدِّ عَنْ كَبِدٍ
بَعَثْتُ مِنْهُمْ بِالسَّحَرِ الْحَلَالِ ، فَلَمْ

وَالْكَفَرُ خَزْيَانُ مَا يَنْفَكُ يُضْطَهَّدُ
فِيهَا الْجَفَاظُ وَفِيهَا الصَّبْرُ وَالْجَلْدُ
عَلَى الْجِيَادِ الَّتِي قَدْ زَانَهَا الْجَيْدُ
أَيْنَ الْغَوَاةِ الْأُولَى قَدْ طَالَ مَا بَرَدُوا
مِثْلَ الرُّوَاعِدِ فِيهَا الْبَرْقُ وَالْبَرْدُ
كَأَنَّ كُلَّ سَنَانٍ طَائِرٌ غَرَدَ
كَأَنَّهُ مَقْلَةٌ قَدْ مَسَّهَا رَمَدُ
مَنْبِرَةٍ فِي دِيَاغِي نَفْعُهَا تَقْدُ
إِلَّا تَلْقَاهُ مِنْ خِرْصَانِهَا رَصَدُ
وَالْبَحْرُ فِي جَنْبٍ مَا تُولُونَهُ ثَمَدُ !
يَقْصُرُ الْمَرْءُ عَنْهُ وَهُوَ مُجْتَهِدُ
تَبْلَى اللَّيَالِي وَهِنَّ الْغَضَبُ الْجُرْدُ
لَوْلَا رَجَاؤُكُمْ قَدْ فَتَّهَا الْكَمَدُ
تَعْقِدُ عَلَى نَفْتٍ نَفَاثَ بِهَا الْعُقْدُ !

وقال عنه ما أجاز البحر منصرفاً بمدينة سبته في تاريخ ذلك : (طويل)

تَجَشَّمْتُ هَوْلَ الْبَحْرِ فِي طَلَبِ الْبَحْرِ
وَلَمْ أَشْكُ صَرْفَ الدَّهْرِ إِلَّا إِلَى الدَّهْرِ
[110] فَقُلْ لِلدِّيَاغِي أَغْدِقِي أَوْ تَكْشِفِي

فَهَا أَنَا قَدْ أَمْسَيْتُ فِي ذِمَّةِ الْبَدْرِ
لَعَمْرُكَ مَا أَلْقَى أَبَا حَفْصِ الرَّضَى
وَأَشْكُو اللَّيَالِي مَا تَطَاوَلَ مِنْ عَمَرٍ
هُمَامٌ إِذَا مَا هُمْ نَالَ مُرَادَهُ
وَلَوْ أَنَّهُ أَمْسَى عَلَى قِمَّةِ النَّسْرِ
هُوَ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَشِبْهُهُ
وَحُسْبُكَ مِنْ فَرْعٍ وَحُسْبُكَ مِنْ بَحْرِ

فاستحسن هذه البيات مع تقدم القصيد وما ذكر فيه من القصود ، ثم نفذ أمره الكريم بالانصراف ، وعبر البحر الى العدو والانعطاف ، وسرح

أشياخ بلاد الأندلس الوافدين ، والعمال والأجناد القاصدين ، بعد ما ذكرته من الأنعام عليهم على أوفى التمام المقام ، وأجاز السيد الأعلى وأخوه السعيد⁽¹⁾ وأكثر الجملة الخاصة به ولم تستكمل المراكب ولا القطائع الناس في الإجازة في ذلك اليوم ، فأقام السيد في سبته ثلاثة أيام إلى أن عادت المراكب والقطائع بالعبور إليهم بالجبل ، وبالجيزة الخضراء فأجاز الجميع إليه ، واستقروا في محله بين يديه ، وكنت⁽²⁾ مع الوافدين أولاً وأخيراً ورفعت شعراً مع الشعراء على رأي عمر بن الخطاب⁽³⁾ رضي الله عنه استلطف فيه كرمه ، واستعطف به عدله ونعمه ، وأوصله إليه الكاتب أبو الحسن بن عياش وبين عند السيد الأعلى مسألة وفودي وقصودي فوعد رضي الله عنه في جانبي بعدة جميلة ، وبآمال كفيفة .

(مرافقة ابن صاحب الصلاة لركب الخليفة ونزوله بالمغرب)

وصحبت [111] حَمَلْتُهُ⁽⁴⁾ حتى إلى الحضرة العلية المشتملة على العدل وعلى كل فضيلة ، ووصلتها يوم وصوله ، وحللت فيها حين حلوله ، واستسعدت به حيث كان في إقامته ورحيله ، وكما قال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي⁽⁵⁾ فخر الأندلس وبحر علم الأنفس في تأليفه في (كتاب

(1) هو بالذات أبو سعيد ، ولعل الأصل هكذا أبو سعيد .

(2) يؤكد ابن صاحب الصلاة أنه كان في جملة الحاضرين إلى جبل طارق . وأنه كان ضمن الشعراء الذين أسهموا في نحية هذا اللقاء بل واستمر مرافقاً للركب . راجع المقدمة .

(3) يقصد فيها بتأكد أنه لم يتبع في شعره حوشي الكلام ولم يعاقل ، وأنه لم يقل إلا ما يعرف ولم يمدح إلا بما هو موجود ، وتلك المبادئ هي التي اعتمدها عمر بن الخطاب في الحكم على ابن أبي سلمى بأنه أشعر الشعراء . . . الأصفهاني الأغاني جزء 9 طبعة بيروت 1955 ص 295 .

(4) عوض هذه الورقة رقم 56 تجد في المخطوط المجلد ورقة تحمل خطأ رقم 56 بينما هي في الواقع رقم 61 وتبتدى هكذا : «أي عبد الله بن يوسف المتقدمين بالعرب إلى جزيرة الأندلس» راجع المقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ص 16 .

(5) أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الماعفري ترجمه غير واحد في غير ما كتاب ، وقد كان على رأس =

الرحلة (1) له حين دخل بغداد وتعرف بسلطانها : « نعمت المعرفة التعرف بالسلطان ، والتشرف به عند التغرّب من الأوطان ، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان » . ونفذ أمر السيد الأعلى أبي حفص إلى أبي عمر بن حربون ، وأبي الحسن (2) الهوزني كاتب محمد بن المعلم أن

= الوفد الذي ورد على المغرب لتقديم طاعته للموحدين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة توفي على مقربة من مدينة فاس عند رجوعه من مراكش سنة 543 ، وفي عهد السلطان المولى اسماعيل حين وفد عليه للمغرب وفد الماعرفة من الصحراء وتزوج منهم بالسيدة خاتنة بنت بكار سيدهم فسالت عن قبر ابن العربي وأمرت ببناء قبة عليه ما تزال معروفة مقصودة إلى الآن . الحلل الموشية ص 122 - المقرئ نفع الطيب طبعة 1949 جزء ثان ص 233 - الاعلام ، خير الدين الزركلي سابع ص 106 - العباس بن إبراهيم ، الاعلام ثالث ص 11 . الذر الفاخرة . . .

(1) كان القاضي أبو بكر بن العربي ذهب صحبة والده في مهمة رسمية إلى بغداد مبعوثاً من طرف يوسف بن تاشفين ، فقد خاطب يوسف بواسطة هذا الوفد الخليفة ببغداد على عهده أبا العباس أحمد المستظهر بالله ابن الخليفة العباسي المقتدي بالله في أن يعقد لأمر المسلمين بالمغرب والأندلس ولكن هذه الرحلة إلى المشرق لم تمر كسائر الرحلات إذ أنها كانت فرصة لابن العربي كما يأتي بما لم يأت به أحد ، ولذلك فقد ذكر في أبرز مؤلفاته الفريدة (كتاب الرحلة) . ويوجد مخطوط بالخزانة العامة بالرباط يظن أنه (ملخص) لكتاب الرحلة ، وهو يتدلى هكذا : قال الإمام الحافظ القدوة المبارك الفاضل أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي الماعرفي الأندلسي (رض) : وقد شاهدت من طلب العلم بأفريقية ومصر والشام والساحل والعراق والحجاز وما لا يأتي عليه الإحصاء ولا ينال باستقصا ولما سبق القضا برحلي إلى تلك المشاهد الكريمة ، وحلولي في تلك المقامات العظيمة ، دخلتها والعمر في عتفوانه ، والغصن مايس بأفنانه ، ونزلته في كتاب ترتيب الرحلة . . . إلى أن يقول : المرتبة الأولى لما وصلنا إلى مدينة السلام كتب أبي برد الله مثواه . . . إلى الخليفة رضوان الله عليه كتاباً في درج طويل على صفة ادراجهم في مخاطباتهم . . . ونختم هذه الأوراق هكذا : انتهى ما لخص من هذه القصة . . الخ . .

وابن صاحب الصلاة هنا ينقل مقطعاً من الرحلة الماعرفية مما لم أجد له نصاً في المخطوط المشار إليه وإن كان قد أشار إلى الاتصال برجال الحكم . المخطوط رقم 1020 . الخزانة العامة ، الرباط - المقرئ نفع الطيب الجزء الثاني ص 235 ، أحمد الهواري ، دليل الحج والسياحة طبعة 1935 ص 293 ، العباس بن إبراهيم جزء 3 ص 13 . ابن خلدون ، المجلد السادس ص 386 . السيوطي : تاريخ الخلفاء 1959 صفحة 426 - الاستقصا ثان ص 53 .

(2) هنا يبايض وأغلب الظن أن اسم علي سقط للناسخ الذي لم يترك فراغاً عند إيراد الاسم اثر هذا ، وأبو الحسن الهوزني هذا هو علي بن أبي حفص عمر بن أبي القاسم بن أبي حفص كان - فيما رواه ابن عداري - من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة عند سرد حوادث 575 ، وقد وردت تكتيته عند المراكشي وابن سعيد بأبي الحسين وذكره الأول على أنه من كتاب الخليفة أبي =

بصحاياه لكتابته في جملة كتابه ، فأما أبو الحسن الهوزني فرفعت أيامه بتدوينه في المحاسبة ويخطه ، وأما أبو عمر بن حربون فطالبته معارفه ، وذنبته أفهامها وأقلامه وأشعاره حتى تمكنت من حرمانه وحطه حسبما أذكره في هذا التاريخ (1) .

وتحرّك السيد الأعلى من سبتة آخذاً في السير ، بالبشر العام وبأوفى الخير ، فاجتاز في مسيره على مدينة فاس (2) ، ثم أعمل الطريق إلى حضرة مراكش حرسها الله والسعد يقدمه ، والتصر علمه ، والبشر مبتسمه ، إلى أن وصل فتلّقاه السيد المؤيد الأمير أبو يعقوب رضي الله عنه ، ومع السيد أبي حفص [112] أخوه السيد أبو سعيد خارج مراكش على أوفى الاستبشار ، والسرور البادي باجتماعهم ، والاستظهار ، وإقمام المناققين والكفار ، وعلى أكمل غاية الظهور والبروز من قرع الطبول وخفق البنود ، واجتماع النظارة وحضور الوفود بكمال العهود ، ودخل السيد مراكش في أول رجب الفرد من عام ستين وخمس مائة ، وأطعم الموحدين الطعام وجميع الناس ، وظهر السرور في الاشارة بأجمل الظاهر والإحساس . وأنشد الشعراء أشعارهم بالتهاني والمدائح فأجادوا وأحسنوا ، وخطب الخطباء فأتوا في ذلك بالسحر الحلال ويّئنا ، وقال الأستاذ أبو الوليد الشواش الشلبي في ذلك المجلس الكريم مادحاً مهنئاً الأمير أبا يعقوب بالقدوم الميمون المعلى بالسلامة والتسليم : (كامل)

= سعيد يعقوب والثاني على أنه من كتاب منصور بني عبد المؤمن كما يذكر ابن عداري . المعجب طبعة القاهرة ص 244 - ابن عداري ص 106 و 165 - المغرب في حل المغرب أول ص 235 .

(1) في السفر الثالث دون شك وانظر التعليق رقم 1 ص 175 .
(2) لقد علمنا منذ قليل أن ابن صاحب الصلاة كان في جملة الوافدين على جبل طارق وأنه صاحب موكب السيد أبي حفص إلى الحضرة العلية ، وهكذا نجد ابن صاحب الصلاة يحمل بمدينة فاس ، ونحن نرجح أن تكون هذه هي زيارته الأولى لمدينة فاس ، ونرجح أن يكون استمع في هذه المرة إلى الشيخ المسن الذي حدثه عن رحلته لبغداد واتصاله بالإمام الغزالي . ودعاء هذا على أيام بني لثونة بالبوار! الحلل الموشية - نشر علوش ص 85 .

وَضَحَّتْ بِأَنْوَارِ الْهُدَى قَسَمَاتِهِ
مَلِكُ الْمُلُوكِ مُؤَيَّدٌ لِكُنْهِ
ذَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَكَافَّةُ أَهْلِهَا
أَبْدَى لَنَا بِشَبَابِهِ وَمَنَابِهِ

[113] فرع من الدُّوح الألف تسامقت

أَفْنَانُهُ
سَامَى وَطَاوَلُ فِي سَمَاوَاتِ الْعُلَى
غُرُ لَبِيبِ وَالْعُلُومِ لِدَاتِهِ
كَثُرَتْ قَضَائِلُهُ فَكَاثَرَتْ الْخَصَى
وَمَضَتْ بِيرِقِ غَيُومِهِ صَفَحَاتِهِ
وَأَفَادَهُ دَهْرًا مُفِيدًا مُنْعَمًا
نَجَلَ الْخَلِيفَةُ يَقْتَدِي بِرَشَادِهِ
وَرَدَ الزَّلَالُ الْعَذْبُ فِي يَنْبُوعِهِ
فَهُنَاكَ أُسَسَ بِالتَّقَى بُنْيَانُهُ
وَلَاهُ مَرْتَبَةُ الْفَخَارِ وَلَاتُهُ
وَتَقِيلُ الْخُلُقُ الرُّضِي فَانْجَحَتْ
صَبٌّ يُوَكِّلُ بِالْيُوعَى أَوْ بِالْأَنْدَى
أَلَفَ الْحُرُوبُ فَلَمْ يُخَلْ بِعَهْدِهَا
وَإِذَا تَذَكَّرَهَا أَجْدُ نِزَاعِهِ
يُلْهِمُهُ رَوْضُ الْقَنَى دَوْحَاتِهِ
وَالسَّابِقَاتُ مَوَارِدُ يَشْفِي بِهَا
فِي حَيْثُ صَوْتُ الْمَشْرِفِي مَرْجَعُ
وَيَهْبُ مِنْ رِيحِ الْجِلَادِ نَسِيمُهَا

(1) أورد ابن عذاري عشرين بيتاً من قصيدة الشواش . البيان المغرب ص 47 - 48 .

تَحْنُو عَلَيْهِ الْحَرْبُ إِذْ كَانَ ابْنُهَا
[114] فَتَقِيهِ بَادِرَةُ الْغَوَائِلِ وَالرُّدَى
يَا خَيْرَ مَنْ مَلَكَ الْوَرَى وَدَعَاهُمْ
جُوزِيَتْ بِالْحُسْنَى إِذَا مَا مُحْسِنٌ
مَنْ يُصَفِّ حَبْكُ أَسْعَدَتْ أَحْوَالُهُ
مَنْ يَقْتَدِي بِكَ يَهْتَدِي ، أَوْ مَنْ يَرْمِ
وَتَهَيَّأُ الْبُشْرَى بِأُورَةِ سَيِّدِ
نَجَلَ الْهُدَى وَأَخُوكَ عَزَّتْ نَسَبُهُ
فِي اللَّهِ أَعْمَلُ سَعْيُهُ فَحَوَتْ لَهُ
سَيْفٌ بِكَفِّكَ مُضَلَّتْ تَسْطُوبُهُ
نَذِبُ أَشْمِ الْأَنْفِ إِنْ سُئِلَ الَّذِي
سَهَّلَ الْجَوَانِبِ رَاضِيًا وَمَوَالِيًا
سَاسَ الْأَنَامَ فَأَمَلَتْ نَعْمَاؤُهُ
يَرْعَى بِجَفْنِ كِلَاءَةٍ وَحِمَايَةٍ
أَنْتُمْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ أَوْثَقُ عَصْمَةٍ
لَا زَلْتُمْ لِلْمَكْرُمَاتِ وَلِلْعُلَى
وَأَسْتَقْبَلُوا فِي الدَّهْرِ عُمْرًا بَاقِيًا

وقال أبو عمر بن حربون يهنيء بالإياب من جبل الفتح ويمدح الأمير
[115] أبا يعقوب والسيد أبا حفص ويغبط الأخوة بينهما : (وافر)

بِأَيْمَنِ طَائِرِ كَانَ الْإِيَابُ
وَكَانَتْ وَجْهَةً كَرُمَتْ مَنَابِأُ
إِذَا قُضِيَ مِثَارِكُمْ جَمِيعًا
دَلَفْتُمْ بِالْأَسْوَدِ إِلَى بِلَادِ
أَشْبَهُهَا غَدَاةَ حَلَلْتُمُوهَا

وَأَنْجَحَ مَطْلَبَ بَلَّغِ الطَّلَابِ
فَقَدْ شَكَّرَ التَّوَجُّهَ وَالْمَنَابِ
فَمَا فِي سَعْدِ طَالِعِهَا ارْتِيَابُ
ثَوْتُ حَجَجًا تَعِيْتُ بِهَا الذَّنَابِ
بِلَادِ الْجَذْبِ حُلَّ بِهَا السَّحَابِ !

فلولاكم لقد أضحت مواتاً
فقد ألقى عصا العمران فيها
جمعتم من بني قيس شعوباً
تجانس جيشهم لفظاً ومعنى
تعاهدتم مواطن خير أرض
هو الجبل الذي للفتح فيه
به من نور سيدنا أبيكم
وشطر المغرب الأقصى ثنيتهم
وليس سموكم كحباب ماء
أتتكم كتبهم مستصرحات
يخط من الصفوف به سطور
فكم من مارد عاجلتموه
حيث غارب الكفران منه
[116] ولي العهد أنجحت المساعي
وأحكمت الأمور بما تواصت
نصرت من أبي حفص أخيك
وقبلكم اصطفى موسى أخاه
سرى عنكم ببخر مكفهر
تسير الشمس شبةً إليه
تضمن رزقها فترى عقاباً
إذا ركع الوشيج على الهوادي
عليه من سراة بني علي⁽¹⁾
كسوب الحمد متلاف وهوب
كان الناس من خطا وأنتم

يسن على ترائيها التراب !
وقوض رحله عنها الخراب
تسيل بها المحاني والشعاب
فهم عرب وخيلهم عرب
مكرمة تشد لها الركاب
مخايل ما لصادقها كذاب
شعاع ما يزال له التهاب
أعنتها كما زخر العباب
ولكن مثل ما يسمو الحباب
فطير من كتائبكم جواب
فيصغر رقعة عنه اليباب
كما ينقض في الجو الشهاب
بأمر لا يطير له غراب
بمينكم وأصحب الصعاب
به الالباب والحسب اللباب
بماضي الحد تعرفه الرقاب
فشأنهما وشأنكما عجاب !
يصب على العصاة به العذاب
كان الطير بينهما جباب
من الرايات تتبعها عقاب
فقد سجدت له الشم الهضاب
علي لا يضاف اليه عاب
كمثل البحر يرجى أو يهاب
- أدام الله أمركم - صواب !

(1) يعني به علياً والد الخليفة عبد المؤمن، البيهقي، أخبار المهدي ص 21 - 22 ابن عذاري ص 36.

وأنتم⁽¹⁾ في مشاهدكم كهول
فمن يرجو بوصفكم قياماً
فما يستطيع غايتكم حبيب
أسيدنا أبا حفص رضاكم
ولولا ما أوئل من رضاكم
أنا العبد الغريب وليس يزري
بعيد أن يسيء إلي دهر
وأنتم في موالدكم شباب !
وفضلكم تضمنه الكتاب
ولا يحوي فضائلكم حساب
به يرجى لدى الله الثواب
لما ساع الطعام ولا الشراب
بمن آواه ظلكم اغتراب
نوائبه بذكركم تناب

وقال أبو عمر أيضاً مرجعه من الجبل ، [117] يمدح السيد الأعلى أبا
حفص وقد استكتبه على ما تقدم الذكر به⁽²⁾ ويهنته بزورة كعبة أخيه ويحثه :
(كامل)

خثوا المطي فقد قضت أوطارها
وإن اشتكت⁽³⁾ أيناً فلا ترنولها
لا تعذروها أو تحل فناءه
واستوصلوا أعمالها وكرالها
حتى تزورا كعبة الفضل التي
فإذا استلمتم بالسلافة ركنها
ها أنها صور اليكم نزع
بلغت رباط الفتح عوجاً ظلماً
وستغدي بعد الغرور جواحظاً
فاستشرفوها كالسهم سواهما
تطوي صحائف كل أرض صحصح
واخذوا الى باب الأمير قطارها
حتى تحدث عنده أخبارها
فإذا خللتم فاقبلوا أعذارها
فالنفع في أن تشتكي أضرارها
قد أحسنت بركاتها زوارها
فارموا بأخفاف المطي جمارها
قد صارها من جكم ما صارها
قد كان يستوي السرى أمارها⁽⁴⁾
إن ملأت بسقاتكم أبصارها
تطوي المهامه ليلاً ونهارها
رسم السرى بحروفها أسطارها

(1) في المخطوط: رأيتم وهو لا يستقيم.
(2) وذلك في صفحة 111 مع أبي الحسن الهوزني.
(3) في المخطوط اشتكت وهو لا يستقيم ولا يسوغ ذلك.
(4) كذا في الأصل ولم تتبين معناه.

ومتى شدا الحادي لحسن ثنائكم
صدرت عن الجبل المبارك بعدما
واستقدمت للرعب كل كتيبة
وقضت بأرض العدوئين مئارياً
[118] تسري مصالحها بسنة صالح
جهزتم نحو الأعادي فيلقاً
جأؤوا تقدمها السعد طلائعاً
لبست بها شمس الظهيرة حلة
فتطلعت منه تطلع غادة
فكان أرض الملجدين لباسكم
فتهنؤوها دولة « مهديّة »
أبنا وذكركم تعلقة لوعة
والشمّل متصل النظام بدعوة
فتنشقوا عقب التحية نحوكم
زارتكم منها عجالة قادم

طارزت بأجنحة السورر مطارها
بثت بسعدكم هناك شعارها
شنت بأرض المشركين مغارها
شكر الأنام لفصلكم أنارها
إن لم ترع فرق العصاة قدارها⁽¹⁾
سحاب أذيال القنا جرارها
وترى ملائكة العلى أنصارها
خلط العجاج لجينها ونضارها
تبدو وأحياناً تضم خمارها
تكلي تمزق صدرها وصرارها
رفعت لأبصار العباد منارها
قد أضرمت بين الجوانح نارها
بمونة تمتم أنوارها
تهدي اليكم وزدها وعرارها
نظمت ببشر لقاكم أشعارها

وقال الكاتب أبو عبد الله الشاطبي⁽²⁾ مهنتاً بالإياب مادحاً وهو كاتب
مجيد ، ورجل مجيد ، إلا أن سبب توحشه عن الناس وهم استغلب عليه
فاستولى عليه بذلك الخمول والقعود : (طويل)

(1) قدار: ابن سالف الذي عقر ناقة الله آية صالح عليه السلام.

(2) لم نطمئن لما وجدناه عند البحث عن هذه الشخصية وإن كنا لا نستبعد أن يكون هو محمد بن عبد
الرحمن بن ياسين الذي كان معدوداً من الفقهاء والأدباء والذي كان له حظ من قرض الشعر
والموتى سنة 590 وقد نقل من شعره يهجو بلدته شاطبة:

شاطبة قرية ضنينه ليست لمن أمها معينة
تضم الطيب اهتماما وتالف الدهر أن تعينه
والحبث المحض تضطفيه ضداً لما جاء في المدينة!
زاد المسافر، نشر عبد القادر محداد ص 95.

سلام كعرف الروض غب قطاره
وبشرى كما انشق الدجى عن صباحه
يقرب بعين الملك مقدم سادة
[119] لتهن أبا يعقوب غبطة أوبة
أميران سل الملك سيفيه منهما
بحيث أبو حفص وعثمان بغده
عميداً سناء بل شهاباً سيادة
يأخ اختيال الحس من زهو خيلهم
وما يرهب الأعداء من حسن منظر
لقد صديت من ناصر الأمر مقله
فنادت أبا حفص أخاه لعزيمة
يواصل ادلاج السرى من ظلامه
وجاء ، كما سوى جناحيه طائر
بحيث استقر العلم والحلم والهدى
به السعد ممتد وهدي خلافة
قد اعتاضه الرحمن للخلق رحمة
حكمت ببيعة الرضوان⁽¹⁾ بيعته التي
ألت ترى في الناكثين وقائعا
تنسى هلالاً حرب؟ نساره⁽²⁾
حصائد سيف الحق صرعى بشاهق

تجيه مشتاق الفؤاد مطاره
ولاح هلال الفطر بعد سواره
يسر بمراهم محل قراره
بصنوية وافته لحين انتظاره
على ثقة يرجوهما لا تنصاره
تلقاهما للبشر حين بداره
وملك أبو يعقوب قطب مداره
وليس ينكر مسيل عن ازاره
فمن خلق الإيمان ترك اختصاره
لعثمان تشكو منه شخط مزاره
كمثل اليماني حد غرب غراره
بتأويب سير في سراب نهاره
إلى مجتنى الأمال قصد مطاره
وحل به للدين حامي دماره
هي اللأجب الهادي بضوء مناره
وأجرى له الأقدار وفق اختياره
بها غزي الإلحاد في عقر داره
يمين الردى فيها كمثل يساره
وينسى ابن مرق؟ وقع يوم جفاره⁽³⁾
به امن المغتر وقع جذاره

(1) يشير إلى البيعة التي تمت في صدر الإسلام على مقربة من مكة عند الحديبية فراجع ما كتبه
المفسرون عن الآية الشريفة: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة». سورة
الفتح الآية 18. ابن جزي: كتاب التسهيل، المجلد الرابع.

(2) لا شك أن هنا كلمة سقطت للناسخ توجد أثر كلمة هلال أو حرب.

(3) يعني أن تلك الوقائع تذهل هلالاً وابن مرق... لكن من هو هلال؟ وابن مرق؟ فهل هلال بن
مردنيش؟ وهل الأصل ابن مريق؟ لم نهد فعلاً للتأكد من قصد الشاعر.

لقد عَمِيَتْ مِنْهَا البصائر شَقْوَةً أَحْلَتْهُمْ لِهَلْكَ دَارَ بَوَارِهِ
وَلَوْ قَرَعُوا لِلصَّفْحِ أَبْوَابَ تَوْبَةٍ لَهُ لَمْ يَخُوضُوا لِلرَّدَى فِي غِمَارِهِ
[120] هُوَ الْمَلِكُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ انْتَمَى
إِلَى الشُّرْفِ الْأَعْلَى كَرِيمٌ نَجَارُهُ
تُنَادِيهِ لِلْأَلْبَابِ مَوْرِدَ حِكْمَةٍ يَفْجَرُهُ لِفَهْمٍ سَبْرَ اخْتِبَارِهِ
ومنها :

هو ابنُ أمير المؤمنين أقامة
هذا الفراغ يزكو من أرومة أصله
بكم حسن الشعر الذي راق نظمه
له خجلُ التقصير في وصف مجدكم
عسى الجود يحظيه بصهوة صافي
ودونكها يا بن الإمام قصيدة
كما قرن الآتي الى البيت حجّه
وحسبكم هدياً ثناءً عليكم
له كعبة منكم تطوف بها المني

الى بث علم منذ بدء انتشاره
وللفرع ما يوتى الجنى من ثماره
ولم يك إلا مدحكم من شعاره
ولكن علاككم قابل لا عذاره
يشق على ذي السبق شق غبارهِ
من الأدب المنظوم بعد انتشاره
وشفعه في نية باعتماره
بصفو ضمير لم يشب بسماره
وحيث منى الإنشاد مرمى جماره !

ذكر العزم المؤيد من السيد الأعلى المجاهد الاسنى المرحوم أبي
حفص بن الخليفة رضي الله عنهم بالحركة السعيدة المنصورة
الى ابن مردنيس باتفاق ورأي الأمير أبي يعقوب رضي
الله عنه ، واجازته البحر بعسكره المظفر
ومنازلته بلاد ابن مردنيس مردفاً للشيخ أبي
سعيد⁽¹⁾ بن الحسين والشيخ [121] أبي
عبد الله⁽²⁾ بن يوسف المتقدمين بالعرب
الى جزيرة الأندلس لحمايتها في
ربيع الآخر من عام ستين
 وخمس مائة على ما تقدم
الذكر به في هذا التاريخ⁽³⁾ وما دار في ذلك
من الفتح

قال المؤلف : وأقام السيد الأعلى أبو حفص بمراكش بعد انصرافه من
جبل الفتح ومعه أخوه أبو سعيد بقية شهر رجب الفرد وشهر شعبان كله ، وكان
أبو سعيد بن الحسين وأبو عبد الله بن يوسف قد تقدما بعسكر العرب المذكور
على ما تقدم⁽⁴⁾ وبعثوا عند وصولهم إشبيلية منهم جملة مباركة نحو الخمس
مائة فارس الى مدينة بطليوس لحماية صيقتها فيسر الله لهم غزو شرذمة ذميمة

(1) يعني أبا سعيد بخلف بن الحسين. راجع التعليق رقم 1 ص 180.
(2) عوض هذه الورقة رقم 61 نجد في المخطوط المجلد ورقة تحمل رقم 62 بينما هي في الواقع رقم
56، وتبتدىء هكذا «جملة حتى إلى الحضرة العلية الشتملة على العدل وعلى كل فضيلة...»
راجع التعليق رقم 4 ص 185 والمقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ثم أن
الشيخ أبا عبد الله بن يوسف عن لم نجد لهم ذكراً في البيهقي ولا ضمن الرسائل الموحديّة ولا في
بقية المصادر الأخرى التي بين أيدينا فلملّه من بقي من لم يوقف على أسمائهم. ابن عذاري ص
48 - 49.

(3) وذلك صفحة 105.

(4) وذلك صفحة 121.